رفائيل بطي وكتابه " الادب العصري " .. صفحات مطوية

رفعة عبد الرزاق محمد

رفائيل بطي

بطي.. التكوين الثقافي

تعود صلة رفائيل بطي بالادب الحديث الى الفترة الاولى من تكوينه الثقافي وعندما كان معلماً في احدى مدارس الموصل، اذ وجد مكتبة مدير المدرسة حافلة بآثار النهضة الادبية الحديثة، فاطلع على ما يمكنه الاطلاع عليه واغترف من مؤلفات امين الريحاني وولي الدين يكن وجبران خليل جبران وغيرهم الشيء الكثير، حتى بدا واضحاً تاثره باعلام الادب العربي الحديث ونزعاتهم التجديدية وما ان دخل معترك الحياة الادبية في العراق حتى وجد ان اليقظة الادبية الحديثة في العراق لا تقل عما يجري خارج العراق، وان اعلام الادب فيها جديرون بالتنويه والبحث، فعقد العزم على جمع آثارهم والتعريف بهم اسوة بما ظهر في مصر والشام من آثار كفلت بيان المشهد الادبي والتعريف باعلامه.

نعمان الاعظمي - ناشر الكتاب

عبد المحسن الكاظمي

وكان رفائيل بطي اول من تنبه لليقظة الادبية في العراق في مطلع القرن العشرين ووجه لها عنايته الفائقة، فاخذ يتابع احوال اعلامها وتقصي اخبارهم وكان تأليفه "الادب العصري في العراق العربي" مظهراً من هذا التنبه والعناية فقال في مقدمته: هذا كتاب جديد، اردت بتأليفه ابراز صورة مجسمة للادب العصري في العراق وتبيان الطريقة التي يتبعها شعراؤنا وكتابنا في نظمهم ونثرهم، فما احوجنا اليوم الى درس ادبائنا ونقد اساليبهم.. حينذاك يتضح الغرض الذي قصدت اليه في كتابي هذا (ص١)

ويمكن القول ان هذا الكتاب الرائد، كان اساساً لمشروع كبير، عكف رفائيل بطي على جمع مادته لسنوات طويلة، حتى انه ذكر في ترجمته للزهاوي (ص١٧) انه اودع تفاصيل الحديث عن الشاعر في كتاب آخر سماه "فيلسوف بغداد في القرن العشرين" واذا كان بعض الباحثين قد اكد فقدان هذا الكتاب فان جريدة (العراق) التي كان بطي محررها الاول قد نشرت بعضه في نيسان ١٩٢٣ ورغم تعاقب السنين فان كتاب "الادب العصري" بقي مرجعاً للباحثين عن اعلام الادب العراقي ولقي من الحفاوة والترحيب والنقد الشيء الكثير وقد اعتنى بطي -كما يبدو- بتراجم الاعلام الى النهاية، وقد كتب العشرات من التراجم لرجال العراق المشهورين في شتى مظاهر الحياة، ولا نخفي سراً ان الاستاذ سير بصري اعتمد كثيراً على هذه المقالات في كتبه القيمة عن اعلام العراق الحديث.

محمد مهدي البصير

رأي احمد امين

وقد ذكر الاستاذ خيري العمري في مقال له عن رفائيل بطي (البلاد اليوم ١٠ نيسان ١٩٥٦) ان احمد امين، الكاتب المصري الكبير، وقد زاره برفقة رفائيل بطي في كانون الثاني ١٩٥٢ قال: نحن المصريين مدينون لرفائيل بطي في التعرف الى ادباء العراق وقد اطلق امين الريحاني عليه لقب: دائرة معارف ادباء العراق وابن خلكانهم (ملوك العرب حـ٢ ص٤٣٧)

آثار مخطوطة

واذا كان قسم كبير من كتاب "الادب العصري" قد بقي مخطوطاً يحن الى من يزيل عنه الحيف والنسيان، فان لبطي آثاراً اخرى لم تزل مخطوطة، هي:
١- الزهاوي، فيلسوف بغداد في القرن العشرين، وكانت دار المعارف بمصر قد قررت طبعه ولم تفعل ٢-الرصافي ٣- اعمدة العراق السبعة، عن رجال السياسة المؤسسين للدولة العراقية ٤-شخوص عراقية، عشرات الشخصيات ممن ترجم لها في جريدته وغيرها ٥-انقلاب بكر صدقي ١٩٣٦ ٦-مقدمات الكتب التي كتبها وقد احسن الاستاذ فائق بطي بنشر مذكرات والده رفائيل بطي ونفض عنها العقوق.

الادب العصري

طبع كتاب "الادب العصري في العراق الادبي" لرفائيل بطي، في المطبعة السلفية بمصر لصاحبها الشيخ محب الدين الخطيب سنة ١٩٢٣، وتولى نشره وتوزيعه نعمان الاعظمي، صاحب المكتبة العربية ببغداد، وثمنه ربيتان ونصف وثلاث ربيات للمجلد (الاستقلال ١٢ آب ١٩٢٣).

وفي مقدمة الكتاب اوضح بطي انه اراد بهذا الكتاب ابراز صورة مجسمة للادب العصري في العراق وتبيان الطريقة التي يتبعها شعراؤنا وكتابنا في نظمهم ونثرهم، ويذكر انه لم يتسن له درس ادبائنا كلهم درساً مدققاً لذا اسهب في تعريف بعضهم واوجز في ذكر الاخرين، وكان بوده ان يفتتح الكتاب بنبذة في الادب قديماً وحديثاً، لكنه رأى اخيراً ترك ذلك الى كتاب آخر في نقده الادب العراقي وقد ذكر في مكان آخر ان ذلك الكتاب في اربعة اجزاء.

ولم يصدر من كتاب الادب العصري سوى الجزأين الاول والثاني من قسم المنظوم، والشعراء الذين تناولهم هم: جميل صدقي الزهاوي، معروف الرصافي، عبد المحسن الكاظمي، محمد رضا الشبيبي، محمد حبيب العبيدي، خيري الهنداوي، كاظم الدجيلي، علي الشرقي، محمد الهاشمي، عبد الحسين الازري، محمد مهدي البصير، محمد حسن ابو المحاسن، محمد السماوي، محمد حسين كاشف الغطاء، محمد باقر الشبيبي، عبد العزيز الجواهري. وقد كتب ترجمة الثلاثة الاخيرة من هذا الجزء بالجزء الثالث من قسم المنظوم، ولم يطبع هذا الجزء الى يومنا هذا ويضم الشعراء: احمد الفخري، رضا الهندي، عطا الله الخطيب، محمد مهدي الجواهري، ابراهيم منيب الباجه جي، شكري الفضلي، قاسم الشعار، منير القاضي، عبد الرحمن البناء، جواد الشبيبي.

اما القسم المنثور، الذي لم يطبع منه شيئاً، فقد ذكر في مقدمة قسم المنظوم ان القسم الثاني الخاص بالمنثور من جزأين (واستدرك فيما بعد انه من ثلاثة اجزاء)، ويضم: محمد شكري الالوسي، محمد حبيب العبيدي، رضا الشبيبي، جميل صدقي الزهاوي، محمد حسين كاشف الغطاء، الاب انستاس الكرملي، يوسف غنيمة، ابراهيم حلمي العمر، حسن غصيبة، باقر الشبيبي، علي الشرقي، عطا امين، عبد العزيز الجواهري، هبة الدين الشهرستاني، شكري الفضلي، ابراهيم صالح شكر، رزوق عيسى، الدكتور حنا خياط، سلمان الشيخ داود، سليمان فيضي، منير القاضي، علي الجميل..الخ

المنثور المخطوط

وقد بقي هذا القسم مخطوطاً بمسوداته لدى اسرة المؤلف الراحل، وذلك لاني رأيت الفصل الخاص بابراهيم حلمي العمر، الصحفي والكاتب الرائد وهو في مرحلة (المسودة) وقد استعرته من اسرة المؤلف الكريمة، اما الكتاب المعد للنشر، فقد ذكر الدكتور جليل العطية (مجلة المكتبة ع ٧٦ لسنة ١٩٧١) ان الدكتور داود سلوم سمع من رفائيل بطي سنة ١٩٥٣ بحضور الدكتور ناصر الحاني والسيدة سافرة جميل حافظ، انه ارسل مخطوطة القسم المنثور من كتاب الادب العصري الى القاهرة لنشره وضاع هناك، ويضيف العطية انه عثر لدى الاستاذ فائق بطي (نجل المرحوم رفائيل بطي) على مسودات الجزء الثاني من قسم المنثور ويضم الاسماء فضلاً عن التي ذكرناها: سليمان الصائغ والقس حنا رحماني.

صدى الكتاب

وما ان بدأ نعمان الاعظمي، صاحب المكتبة العربية، ببغداد، توزيع الكتاب في العراق، حتى بدأت حركة ادبية مثيرة مع ظهور الكتاب الذي جمع نصوصاً جيدة لكبار ادباء العراق، ممن كانت متفرقة في بطون الصحف والمجلات، وقد عرضها مع بحث حيوي دقيق لكل شاعر باسلوب سهل منسجم بعيد -قدر الامكان- عن الاساليب الانشائية والخطابية التي تتجاوز الحقائق وتناقلت الصحف المهمة ببغداد خبر وصوله بكثير من الاهتمام والتنويه، وراحت تلك الصحف تسهب في تقريض الكتاب ومدح مؤلفه وما اسداه من خدمة كبيرة لتوثيق الحركة الادبية في العراق، وتبدو اهمية ذلك اذا ما علمنا ان المكتبة العراقية لم تعرف أي كتاب عن اعلام الحركة الفكرية وسيرهم ليجيء كتاب الادب العصري ليسد هذا الفراغ الكبير، ولا ريب ان صدور مثل هذا الكتاب الخطير كان مدعاة لدفع الحركة الادبية الى الامام، وقد عرفت تلك الحركة نشاطاً واضحاً في العشرينيات من القرن المنصرم، وقد اثار الكتاب معركة ادبية على الصفحات الثقافية من الصحافة العراقية.

ابراهيم حلمي

وكان ابراهيم حلمي العمر، اول من كتب في نقد الكتاب، اذ نشرت جريدة (العراق) في آب ١٩٢٣، سلسلة مقالاته التي بدأها بالثناء على المؤلف وكتابه واهمية صدوره وحسن تبويبه، ثم اخذ بتسجيل المآخذ عليه فانتقد اولاً التراجم المطولة لبعض الشعراء وقد ذكر العمر انها كتبت من قبل اصحابها وليس من قبل المؤلف ثم صب نقده على ترجمة الزهاوي وقال انها تدعو للملل لتضمنها اموراً غير مهمة ولا تخدم الاديب نفسه ومن قوله:

ففي هذه التراجم كثير من الدعاوى الفارغة لبعضهم ينكرها على مدعيها جمهور ابناء هذه الامة والتطويل والاسهاب في التراجم مما يبعث على الضجر والملل في النفوس وبخاصة اذا كانت مضامينها مخالفة للحقيقة والواقع خذ مثلاً ما جاء في ترجمة الاستاذ الزهاوي كقوله: انه قابل نخبة من اكابر العلماء واساطين الادب في مصر كالدكتور صروف نمر وشميل وجرجي زيدان، فهل ان مقابلة هؤلاء الافاضل مما يستحق ان يدون تاريخها في كتاب خالد وهم يقابلون كل يوم عدداً كبيراً لا من طبقة الزهاوي العالية فحسب بل من الطبقات الاخرى كذلك ولا ادري أي فضل للزهاوي واية فائدة للقراء من القول ان عند الفيلسوف العراقي كلباً اسود دعاه (ولك) وهو بمقام قطة الدكتور شميل البيضاء".

وعندما دافع رفائيل بطي عن الزهاوي في كتابه، انبرى ابراهيم حلمي العمر بقوله ان هذا الدفاع يمكن ان يكون مقبولاً لو انه جاء في مقالة صحفية لا في كتاب يفترض فيه المنهج العلمي، واخذ العمر على بطي عدم مراعاة الافضلية في ترتيب الشعراء وعدم الاخذ بتقسيم الشعراء على طبقات فشاعرية الرصافي -كما يرى العمر- افضل من شاعرية الزهاوي، واذا كان هناك منازع للرصافي فيجب ان يكون الشبيبي وقد رد رفائيل بطي على ما كتبه العمر في الجريدة نفسها (ايلول ١٩٢٣) بانه اعتمد على الشعراء انفسهم في كتابة تراجمهم لانهم اكثر احاطة بذلك وان الكثير منهم منسي وهدفه الاول هو التعريف بهم. اما ذكره الامور الدقيقة من حياة الشعراء فذلك لصلة حياة المرء الداخلية وعقليته.

محمد الهاشمي

ومن الذين وجهوا سهام النقد الى كتاب الادب العصري، الاديب محمد الهاشمي صاحب مجلة "اليقين" البغدادية، وقد ايد ما ذهب اليه ابراهيم حلمي العمر الا انه خالفه في الهجوم على الزهاوي والاستهزاء به، كما اعترض على تسمية الكتاب وقال ان الروعة التي كانت في الكتاب ليست الا من حسن طبعه ونفاسة ورقه (!) ونشرت مجلة "المصباح" البغدادية لصاحبها سلمان شينه، ثماني مقالات لتوفيق السمعاني في نقد الكتاب، صب فيها غضبه على المؤلف وهاجم الكتاب بشدة ووصفه بانه اساء الى الحياة الادبية اساءة شديدة وانكر على مؤلفه الكثير من ارائه ومنها الاعجاب بالزهاوي، وعندما تمادى السمعاني بنقده غير الموضوعي، اضطرت المجلة الى ان تنشر بياناً بايقاف نشر الحلقات الباقية لان الكاتب لم يكتف بنقد محتويات الكتاب.

رسائل بين بطي والكرملي

ولقد عثرنا في الرسائل المتبادلة بين الاب انستاس ماري الكرملي (ت١٩٤٧) ورفائيل بطي، ما يفيدنا في هذا الموضوع فائدة وطرافة ورسالة بطي الى الكرملي لم تنشر سابقاً اما رسالة الاب الكرملي فقد نشرتها مجلة "لغة العرب" في سنتها الرابعة (سنة ١٩٢٦) وقد كتب الكرملي في وصف الكتاب:

عصري الوضع والتنسيق والتبويب على الطراز الذي يضعه الفرنجة في عهدنا هذا وبعملك هذا خلدت اسمك واسماء الشعراء نوابغ العراق علماً اني لا اخفي عليك سراً، وهو: انك صرحت في صدر عنوان كتابك بان سفرك هو كتاب تاريخي، ادبي، انتقادي اما كونه؟؟ ادبياً فمما لا انا ضلت فيه واما كونه تاريخياً انتقادياً، فما اطالبك به اشد المطالبة فاين التاريخ من كل ترجمة وقد جعلتها نغمة طنبور واحدة تعلي بها كعب الرجل، ولا تحدثنا عن تاريخ ايامه الشعرية من علو وسفل وحطة ورفعة، من ذكر حقائق ونظم شقائق، من جمع اراء غثة في جنب مذاهب سديدة، من اخلاق فيه رصينة وطباع فيه ممقوتة، فكأني بك فعلت فعل المصور الذي نقح صورة الرجل تنقيحاً لم يبق للناظر اليها اثراً من المصور وحتى جاء على غير ما هو من ظواهر خلقه.

فلهذا قلما ينتفع بوصفك من يريد ان يقف على دخيلة الشاعر فكانك فعلت ذلك خوفاً من انتقاض الناس عليك فاذا صح هذا الظن فكان يجب ان يراعى الحق في وضع الالفاظ في غرة الكتاب.

هذا من جهة التاريخ، واما من الوجه الانتقادي فاني لم أر في كتابك ادق اثر لهذا الامر الجلل، فأذا كان الانتقاد هو مجرد المدح من غير اظهار ما في المنتقد من روائع المحاسن ودقائق المعاني ومختار المباني وما بعكس ذلك، فلا يحق للقائل ان يدعي ان في كتابه نقداً، اللهم الا ان يجعل التاريخ ونقد الادب والعلم احراق البخور امام اصنام الهوى والاغراض والغايات، فذلك امر لا اتعرض لذكره..

ومن طرائف نقدات الكرملي في هذه الرسالة التي نقلنا قسماً منها قوله عن ما جاء في الكتاب عن الزهاوي: ثم انتخب نائباً عن المنتفق فذهب الى الاستانة واقفل المجلس بعد اشهر، فقال: هذا امر مضحك لا يليق بان يقال عن الزهاوي وان كان هو كاتب العبارة وكان الاجدر به ان يقول: فذهب الى الاستانة واتفق انه اقفل المجلس بعد اشهر حتى لا يبقى في فكر القارئ ان الزهاوي كان طائر شؤم لذلك المجلس فاقفل بعد نزوله الاستانة.

وفي اليوم التالي (٧ آب ١٩٢٣) بعث رفائيل بطي رسالة الى الكرملي ننشرها هنا للمرة الاولى لاهميتها التاريخية والادبية.

حضرة الاستاذ العلامة واللغوي المدقق الاب انستاس ماري الكرملي المحترم

سيدي المفضال

بعد التحية والاجلال تناولت كتابكم الكريم الساعة وشكرت لكم عنايتكم ولطفكم، وقد سررت جداً بنقداتكم واستفدت منها فائدة جزيلة لكني رأيت ان ابين لحضرتكم بعض النقاط التي وردت في الكتاب، واعدكم ان يبقى خاصاً كما طلبتم.

١- كانت النية جعل الكتاب تاريخياً انتقادياً حسبما يتطلب الفن لكني رأيت ذلك مستحيلاً في الوقت الحاضر ولا سيما في العراق لانحطاط العلم وضعف النفوس لذلك تروني اعتذرت عن البحث التاريخي في تاريخ الادب والنقد ووعدت بوضع ذلك في كتاب خاص هو جزء من هذا الكتاب (كما تجدون في الملاحظات التي تلي (كلمة) في الكتاب) واصرح لكم بان هذا الكتاب آلة للوصول الى غرض شريف جداً ارمي اليه وهو نشره على هذه الصورة ثم يبدي النقاد اعتراضاتهم ويجمعون على اعطاء الموضوع حقه من النقد فانزل الى الميدان في جزء النقد غير هياب ولا وجل ويكون في النفوس عندئذ استعداد لتلقي النقد. حينئذ يكمل عنوان الكتاب ويحدث التطور الذي ننشده في الادب العراقي.

٢- ان الاسراع في اخراجه حسب رغبة ملتزم طبعه جعله محشواً بالاغلاط ثم لا اخفي عليكم ان ابتعادي عن مجلس سيدي الاستاذ قد خسرني في هذا الباب خسارة كبرى.

٣-نعم الملاحظة بشأن العناوين لمقاطيع الكلام في التراجم، وسأشير على الطابع في مصر ان يضع عناوين في قسم المنثور.

٤-الشكر الوافر يقدمه اليكم جناني على تكرمكم بقبوله والنظر فيه واملي ان لا احرم الاستفادة من فضلكم وان شط المزار وتفضلوا بقبول فائق احترامي سيدي الاستاذ

المخلص

واخيراً فان كتاب رفائيل بطي، الموسوم "الادب العصري في العراق العربي" بقسميه الكاملين جدير بالتذكير وحري بنشره واهل للتحقيق، وما ذلك على الغيارى في مقدمتهم الاستاذ فائق بطي بكبير.